

قراءة نقديّة في مظاهر العلاقات بين الإمارات وشبه القارة الهندية

الأستاذ الدكتور :
ابراهيم القادري بوتشيش

من الثابت أن العلاقات التاريخية بين بلدان الخليج العربي وشبه القارة الهندية تضرب بجذورها في عمق التاريخ القديم . غير أنها زادت تجذرا وترسخا منذ أن أشرقت شمس الاسلام على ربوع الخليج . ومن الأكيد أن منطقة الامارات وغيرها من دول الخليج لعبت دورا رياديا في هذا الترابط . مصداق ذلك ما ذكره البلاذري



التاريخية بين الخليج العربي
القرن الأول إلى نهاية الثالث الهجري

وغيره من المؤرخين الثقاة ، من أن والى المنطقة . كان أول من وجه أنظاره ـ في الفترة الاسلامية الأولى ـ الى شبه الجزيرة الهندية [1] فكان للخليج بذلك شرف السبق لحمل الرسالة الاسلامية اليها ، ومد جسور العلاقات والتبادل الحضاري بين المنطقتين .

والجدير بالذكر ، أن هدف هذه الدراسة لن ينحصر في أبراز عمق هذه العلاقات التاريخية فحسب ، بل تسعى - في تواضع - الى محاولة تفسير كنهها ، وتشريحها من خلال قراءة نقدية تستهدف تحليل العوامل التي دفعت بها الى الوجود والثبات والنماء ، وذلك عن طريق استنطاق النصوص استنطاقا جديدا ، وطرح تساؤلات تستمد مشروعيتها من أهمية الموقع الذي تحتله هذه العلاقات في الخارطة التاريخية للخليج العربي ، وما أفرزته بعض الدراسات من أحكام نعتقد أنها في حاجة الى تصويب .

ويمكن اختزال هذه التساؤلات في تساؤلين محوريين وهما :

١ - ما هي الدوافع التي حتمت التواصل والترابط بين الخليج العربي وشبه الجزيرة الهندية ؟ وهذا تساؤل تفرضه طبيعة الدراسات السابقة التي لم تهتم بالاجابة عن ذلك ، مع ما للموضوع من أهمية قصوى .

٢ - ما هي الكيفية أو الأسلوب الذي تشكلت به هذه العلاقات ؟ وهو تساؤل تفرضه بعض التخريجات التي إبتكرتها بعض الدراسات الهندية التي زعمت - إفتراء - أنها علاقات صيغت عن طريق القوة والعنف ، وهو ما تسعى هذه الورقة الى دحضه والرد عليه .

ونحن في غنى عن القول أن المصادر التاريخية لا تجيب عن هذه التساؤلات بما يشفي الغليل ، ذلك أن مؤلفيها اهتموا بتسجيل بعض الوقائع والأحداث بطريقة سردية كرونولوجية دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الأسباب العميقة التي كانت وراء ذلك (٢) وحتى ابن خلدون المؤرخ الفذ الذي عرف بتقصيه للحقائق وسبر غور الأحداث التاريخية ، لم يسلم من هذه الآفة ، بل لم يخصص للموضوع سوى صفحات هزيلة لا تروي ظمأ (٣) ناهيك عن الثغرات الكبيرة التي يلاحظها أي دارس متتبع لسياق الموضوع ، الشيء الذي يجعل مهمته شاقة وعسيرة .

وإذا كانت المصادر الجغرافية وأدب الرحلات تكشف لنا النقاب عن جانب من هذه العلاقات ، فالملاحظ أنها لا تعطى في الغالب الأعم سوى إشارات متناثرة متقطعة ومجزأة ، مما يزيد الأمر صعوبة وتعقيدا .

ومع ذلك فمن انصاف القول أن هذا النوع من المصادر يقدم لنا مادة تساعد على التفسير والتحليل ، خاصة كتب الرحالة الذين وقفوا بالعيان على أحوال شبه القارة الهندية ، مثل سليمان التاجر السيرافي الذي كان تاجرا معروفا بالبصرة ومنها رحل أكثر من مرة الى بلاد الصين مرورا بالهند ، ودون رحلته (٤) وكذلك المسعودي . على أننا للأسف ، نفتقر الى تراث محلى ، فإذا كانت المصادر العربية قد أمدتنا ببعض الأخبار والإشارات حول العلاقات الخليجية - الهندية في

العصور الاسلامية الأولى ، فإننا لا نجد من المصادر الهندية ما يكمل أخبار ووقائع تلك الفترة الغابرة . وبالتالي فإن هذه ثغرة أخرى تضاف الى مجموع المثبطات التي تحول دون تكوين فكرة شاملة عن الموضوع .

وعلى الرغم من هذه الصعوبات المصدرية والمنهجية ، يمكن في ضوء المعلومات المتاحة معالجة الموضوع المدروس من خلال جمع شتات النصوص المبعثرة في أمهات الكتب ، والاسترشاد بالظرفية التاريخية الدولية آنذاك ، وتقييم كل ذلك وفق ملاحظات تتماشى مع السياق العام لأحداث الفترة .

فبالنسبة للتساؤل الأول الذي طرحناه حول الدوافع التي حتمت مد جسور الصلات بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية ، يمكن الوقوف عند بعض الملاحظات التي تفسر سر نشأة العلاقات بين المنطقتين كما يلي :

١ - من المسلم به أن العلاقات التاريخية بين بلدان الخليج العربي وشبه القارة الهندية ليست وليدة الفترة موضوع الدراسة ، فقد أثبتت الأبحاث التاريخية مدى قدمها ، ويمكن إرجاعها الى الألف الثالث قبل الميلاد (٥) . ومما زاد في تعميق هذا التواصل ، الهجرات القديمة التي حدثت على مستوى موجات بشرية متتالية بين العرب والجاليات الهندية كالزط والأساورة والسيابجة والبياسرة الذين استقروا بشواطىء الخليج العربي (٦) . ولما جاء الاسلام ، وجد في هذا الإرث قاعدة مؤسسة وتربة خصبة لزرع بذرة التواصل ، وبما أنه كان دينا يدعو الى التسامح والتعاون بين أبناء البشرية جمعاء ، فليس من الغريب أن تزداد الرغبة من الجانبين في تعميق أواصر هذا التعاون ، وخلق علاقات تخدم مصالح شعوب المنطقتين .

٢ - ومن المعلوم أن المد الاسلامي كان قد بلغ ذروته في العصر الراشدي ، وكانت جحافل الجيش العربي تلتهم كل أوكار الوثنية ، وبما أن شبه القارة الهندية كانت لا تزال معقلا للعبادة الوثنية كما يؤكد ذلك ابن خلدون (٧) . فقد كان من الطبيعي أن تتطلع أنظار الجيش العربي بمبادرة من قادة الجيوش الخليجية (٨) الى تصفية هذه الجيوب وتطهيرها من دنس الوثنية . وبذلك أصبح الالتقاء بين المنطقتين حتميا توجهه العقيدة الاسلامية السمحاء .

٣ - ثمة قاسم مشترك بين الخليج وشبه القارة الهندية ساهم في تقاربهما ويتجلى ذلك في طبيعتهما البحرية ، فمنذ أقدم العصور كانت الشعوب البحرية هى السباقة الى الابحار والاتصال بحضارات العالم . ولم تشذ المنطقتان عن هذه القاعدة . فوضعيتهما البحرية جعلتهما غير منكفئتين أو متقوقعتين على نفسيهما بل حتمت عليهما الانفتاح على الخارج والاتصال بشعوب المعمورة . ولما كانت بلدان الخليج آنذاك تسيطر على

زمام البحار ، وخاصة الخليج العربي والمحيط الهندي [٩] ولما كانت شبه القارة الهندية تعد محطة رئيسية في التجارة العالمية ، فقد كان من البديهي أن تنفتح المنطقتان على بعضهما البعض ، بحيث لا نبالغ إذا قلنا أن كلاً منهما كان مكملا للطرف الآخر .

٤ ـ يضاف الى ذلك الموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي تحتله المنطقتان على السواء فالخليج العربي يعد حلقة وصل بين الشرق وأوربا ، كما أن شبه القارة الهندية تعتبر موقعا حيويا استراتيجيا هاما في المحيط ، وكما أن أوروبا كانت تفتقر الى توابل الهند ، فإن المرور بالخليج العربي كان أمرا لابد منه . فموقع هذا الأخير جعله يلعب دور الوساطة التجارية ، وهو ما أهله ليكون طرفا أساسيا في المبادلات العالمية لذلك اتجهت اليه أنظار أوروبا من الغرب والهند من الشرق . وإذا أضفنا الى ذلك تقارب المنطقتين أمكن دون عناء فهم سر العلاقات التاريخية التي نشأت بينهما .

٥ ـ كما يجب عدم إغفال مميزات الفترة موضوع الدراسة في تفسير هذه العلاقات ، فالفترة هذه كانت تمثل عصر الملاحة الكبرى ، وقد لاحظ الباحثون المتخصصون أن المواصلات بالطرق البرية في هذه المرحلة فقدت دورها وأصبحت ضئيلة بالمقارنة مع حركة الملاحة الواسعة [١٠] . ولما كان الخليج العربي وشبه القارة الهندية يسيطران على شرايين الملاحة البحرية كما سبق الذكر ، فمن الطبيعي أن تتكامل جهودهما البحرية ، وأن يصبح الالتقاء والتعاون بين القوتين البحريتين مسألة حتمية .

٦ ـ ومن نافلة القول أن الظروف المناخية قد ساهمت بدورها في هذا التقارب بين المنطقتين ، إذ حتمت على بلدان الخليج الاعتماد على التجارة دون الزراعة . ولما كانت شبه الجزيرة الهندية أقرب المناطق المعروفة بالتجارة ، فليس من الغريب أن تمتد اليها أيادي تجار الخليج العربي . صحيح أن المصادر الجغرافية تشير الى وجود بعض الأراضي الزراعية الخليجية ، غير أنها لا تفصح عن ثروة زراعية حقيقية . شفيعنا في هذا الاستنتاج مقارنة بين النصوص التي أوردها ياقوت الحموي حول امارتي البحرين وعمان ومناطق أخرى مشهورة بثروتها الزراعية فهو يقول عن هجر قصبة البحرين [١١] بأن «فيها عيون ومياه وبلاد واسعة» بينما يذكر بشأن عمان أنها «ذات نخل وزروع ، إلا أن حرها يضرب به المثل [١٢]هذا في الوقت الذي نجده يصف مناطق أخرى زراعية من العالم الاسلامي وصفا أكثر ثراء [١٣] ، وان في مثل هذه المقارنة لدلالة كافية على أن الظروف المناخية في الخليج العربي لم تسمح بمنتوج زراعي وافر ، وهو ما حتم على الشعوب الخليجية استغلال البحر لربط صلات تجارية مع

العالم الخارجي ، وفي مقدمته شبه القارة الهندية التي كانت قبلة التجارة العالمية آنذاك .

٧ - وإذا تصفحنا كتب الجغرافيا ، وتتبعنا المنتوجات التي كانت تجود بها أرض شبه الجزيرة الهندية ، وهي المنتوجات التي تفتقر اليها بلدان الخليج ، أمكن اعطاء الدليل على حتمية هذا الاتصال ، فالصورة التي يقدمها لنا ابن خلدون عن السند - وهى جزء من بلاد الهند - تجعلنا نتأكد من توافر منتوجات هامة بها ، فضلا عن أسعارها الرخيصة التي كانت تميز أغلب المدن كالمنصورة [١٤] والملتان [١٥]

وبسمد [١٦] وكيزكانان التي فضلا عن رخص أسعارها وجدت بها أصناف من الفواكه والخيرات [١٧] ، فمن الحتمى إذن أن تتطلع أنظار أهل المنطقة الخليجية الى هذه البقعة للاستفادة من ثرائها . هذا لا يعنى أنها كانت تفتقر كليا الى هذه المواد ، لكن الأرجح هو أنها لم تكن تسد حاجياتها وخاصة بعض المواد التي تحتاج اليها صناعتها ، فكانت تجد في شبه القارة الهندية السوق الذي يمولها ، ولنا في هذا الصدد مثال بارز وهو خشب الساج الذي كان محل طلب الخليجيين لبناء سفنهم التجارية ، فكان ساحل ملابار الهندي يمدهم بهذه البضاعة الهامة [١٨] ، ولذلك يمكن أن نخلص الى القول بأن الحاجة الاقتصادية فرضت على بلاد الخليج التعامل مع شبه القارة الهندية .

٨ - كما أن ازدهار المراكز التجارية سواء بالمدن الهندية أو الخليجية كان له الأثر الفعال في توجه المنطقتين نحو بعضهما البعض ، فمدينة الروز في الهند كما يصفها الجغرافيون «خصبة رفهة كثيرة التجارة» [١٩] والديبل وهى مدينة تقع شرقي نهر مهران ، وصفها ابن خلدون بأنها «متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة .. وليس لهم كثير شجر ولا نخيل ،وهو بلد قشف ، وانما مقامهم للتجارة» [٢٠] . ويزكي الجغرافي ابن سعيد هذا الوصف بقوله انها» أكبر فرض السند المشهورة ، وأنه يجلب منها المتاع الديبلي [٢١] .

وفي نفس السياق يصف هذا الجغرافي جزائر الديباجات على ساحل البحر الهندي بأنها «منازع للمراكب» . [٢٢] .

أما بلاد الخليج ، فكانت بدورها منطقة تجارية ارتبطت بها طموحات التجار حتى أن ياقوت أورد حديث النبى (ﷺ) بأن من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان [٢٣] وكل هذه القرائن ، تنهض حجة على أن بلاد الخليج العربي عندما امتدت ببصرها نحو شبه الجزيرة الهندية ، فإنها لم تفعل ذلك اعتباطا ، وإنما لاقامة علاقات مع بلدان عرفت بقوتها وطول باعها في مضمار التجارة .

٩ - وإذا كانت التجارة قد جعلت من بلاد الهند قبلة للخليجيين الذين كانوا

يطمحون في تحقيق نهضة تجارية ، فإن وجود الذهب بالمنطقة أزكى رغبتهم ، وجعلهم يولون أبصارهم شطرها ، ويهرعون للاستفادة من هذا المعدن النفيس .

ولدينا من النصوص والروايات ما يؤكد توفر المنطقة على الذهب : فالمؤرخ ابن خلدون يزودنا برواية مفادها أنه منذ الوهلة الأولى التي كانت فيها طلائع الفتح العربي تدشن أروع ملحمة في هذا البلد ، وجد الفاتحون في احدى المدن قدرا كبيرا من الذهب في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية (٢٤) كما أن الرحالة الادريسي يشير في مصنفه الجغرافي الى أن مدينة الملتان سميت «بفرج بيت الذهب» لكثرة ما اشتملت عليه (٢٥) . وذكر جغرافي آخر بصدد احدى المدن الهندية أنه كان يوجد بها ملك يقال أنه فرش قصره بالفضة (٢٦) . فإذا صدقنا هذه الروايات أمكن فهم الرغبة الجامحة في اقامة علاقات بين المنطقتين وهذا ما حدا بأحد الباحثين الى القول بأن «شبه القارة الهندية التي كان العرب يعرفون سعة أرجائها وثروتها الطائلة كانت مطمع الأنظار ، وقبلة الأحلام (٢٦) مكرر .

١٠ - كما لا يمكن انكار رغبة خلافة العراق - احدى بلدان الخليج العربي - في تمتين هذا الترابط . فحين استقرت الفتوحات ، وأصبحت الامبراطورية العباسية لا تغرب عنها شمس نما في نفوس هؤلاء حب البذخ والرخاء والرفاه في العيش ، والحاجة الى المنتجات الأجنبية ، ومواد الترف التي اختصت بنتاجها بلاد الهند ، مما جعلهم يشجعون التجارة معها (٢٧) .

١١ - ولا شك أن الترابط بين المنطقتين يفسر كذلك بمحاولة خلافة العراق قطع الطريق على الفرس . فبعد الهزائم الأولى التي كبدوها اياهم ، أرادوا أن يبعدوهم من الابحار على طول الخليج وارسال سفنهم الى عمان والهند ، فشيدوا لهذا الغرض مدينة البصرة التي أصبحت نقطة انطلاق تجار الخليج نحو الهند والشرق (٢٨) .

١٢ - ولا يجب أن يغيب عن الأذهان كذلك أن فئة التجار في الهند والخليج على السواء كانوا يبحثون عن «فائض» لانجاز مشروعاتهم الطموحة ، لذلك عملوا على لعب دور الوساطة بين الوكالات التجارية الكبرى في الهند وبين الخلفاء وكبار التجار والأعيان المستقرين في الخليج ، فكانوا يجلبون مواد الترف مثل العطور والحرائر (٢٩) بالاضافة الى التوابل ، فيزودون بها بلاط العراق وأمراء البحرين وعمان ومسقط وغيرها من موانيء الخليج .

١٣ - وبالمثل ، فإن الهجرات

المتبادلة سواء تلك التي تمت عن طواعية أو بطريقة قسرية ساهمت بشكل أو بآخر في تقارب المنطقتين وانشاء علاقات بينهما . وبهذا الصدد تذكر احدى الروايات ان الحجاج بن يوسف الثقفي أجلى من العراق قبيلة بني هاشم ، فاستوطنت هذه الأخيرة غرب الهند وأقام بعضها بساحل بومباي [٣٠] . وان عملية من هذا القبيل لا يمكن إلا أن تؤدي الى تلاحم الشعوب ، وتمهيد الطريق لتأسيس علاقات متينة بواسطة اختلاط الدم والأجناس بين المنطقتين .

نخلص من كل ما تقدم الى أن العلاقات التاريخية التي نشأت بين بلدان الخليج العربي وشبه القارة الهندية لم تحدث بمحض الصدفة ، وإنما تحكمت فيها عوامل مختلفة ومتشابكة عملت على توجيهها ، وكانت كل هذه العوامل تقرب بين المنطقتين ، وتجعل اتصالاتهما مسألة حتمية .

يبقى علينا أن نجيب فى الشق الثانى من هذا البحث على التساؤل المحورى الآخر وهو : ما هي الكيفية التي تشكلت بها هذه العلاقات ؟ وهل كانت تطبعها الروح العدوانية والعنف والغلبة ، أم كانت تتميز بروح التسامح والتعايش السلمي والتكافؤ ؟ .

تذهب بعض الدراسات الهندية الى خطأ متعمد حين تحاول تصوير تاريخ العرب والمسلمين في الهند خلال العصور الوسطى على أنه مجرد صراع بين المسلمين والهندوكيين ، زاعمه أن العرب استغلوا القوة فخربوا الحضارة الهندية [٣١] وهي نظرة تنم عن خلفية مسبقة تستلزم المراجعة واعادة النظر .

صحيح ان العلاقات بين العرب ـ بما فيهم عرب الخليج ـ من جهة وشعوب شبه الجزيرة الهندية من جهة أخرى شابتها أحيانا مظاهر القوة لكن ذلك لم يحل دون إتباع أسلوب السلم والموعظة الحسنة التي تنسمتها الشعوب الهندية فعبقت بشذاها . وحتى عمليات الفتح التي ربما يشم منها رائحة العنف والاكراه ، كثيرا ما صحبتها عمليات الاقناع والفتح بالصلح [٣٢] ، وفي ذلك أكبر دليل على الطابع السلمي لهذه العلاقات .

وعلى العموم وتمشيا مع الانصاف الذي تفرضه الموضوعية التاريخية ، يمكن أن نصنف العلاقات بين الخليج العربي وشبه القارة الهنديةفي صورتين مختلفتين .

١ ـ السمات العسكرية في العلاقات الثنائية :

بدأت الاتصالات الأولى بين منطقة الخليج العربي وشبه القارة الهندية في الفترة الاسلامية بعمليات الفتح

الاسلامي التي ترجع بدايتها الى عهد عمر بن الخطاب . وقد لعبت دول الخليج دورا رئيسيا في هذا الاكتساح الاسلامي وضم بلاد الهند الى «دار الاسلام» وبهذا الخصوص أورد البلاذري (٣٣) رواية هامة مؤداها أن الخليفة المذكور ولي عثمان بن العاص الثقفي ولاية البحرين وعمان سنة ١٥ هـ (٦٣٦م) ، فوجه هذا الأخير أخاه الحكم الى البحرين ، ومضى الى عمان فأقطع جيشا الى تانة ، وعزم على تنفيذ خطة لفتح الجزء الأسفل من نهر السند ، غير أن الخليفة عمر لم يشجع هذه المبادرة لقساوة بلاد الهند .

ولما تسلم عثمان بن عفان سدة الخلافة ، وجه الى عامله بالعراق أمرا لاختبار أحوال ثغر الهند ، فأرسل اليها هذا الأخير مبعوثا . فلما رجع وصفها لعثمان بقوله : «ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثروا جاعوا» (٣٤) .

ويقوم هذا النص حجة أن العرب لم يكونوا مغامرين غزاة نهابة ، بل كانوا يسيرون وفق هدى الخليفة ، وبعد التعرف على أحوال البلاد وجس النبض . ولو كانوا مولعين بالقوة واستعمال العنف لما تباطأوا في الدخول في مغامرة خاسرة .

ولم تبدأ أولى المواجهات العسكرية الحقيقية إلا في عهد الخليفة الرابع على بن ابى طالب ، إذ خرج القائد الحارث بن مرة العبدي في سنة ٣٩هـ في حملة عسكرية خاطفة أسفرت عن بعض الغنائم لكنه لقى حتفه ثم جاء دور القائد العربي المهلب بن ابي صفرة الذي لم يحقق انتصارات تذكر (٣٥) ، إلا أن العزم على فتح الهند بدا واضحا خاصة في عهد الخليفة الأموي معاوية بن ابى سفيان . وقد علق المؤرخ GIBBON على وضعية الهند في عهد هذا الخليفة بقوله بأن بلاد الهند كانت ترتعش في أيامه (٣٦)وهو تصوير لا نرى أنه صادق ، إذ يلوح من خلاله أن العرب كانوا يفضلون أسلوب العنف ، ولكنه تناسى أن بلدا مثل الهند الذي كانت تعشش فيه الفوضى والتجزئة ، لم يسعه إلا أن يرحب بفاتح موحد ومحرر .

وتكلف بهذه المهمة العسكرية عدة قادة منهم عبدالله بن سوار العبدي ، لكن الفضل يرجع الى القائد العربي الشاب المحنك محمد بن القاسم الثقفي في انجاز هذه المهمة التاريخية وربط مصير شبه الجزيرة الهندية بمصير الدولة العربية حيث تهاوت أمامه مدن السند (٣٧)وفق خطة محكمة خططها الحجاج بن يوسف .

فإلى جانب جيش محمد بن القاسم المذكور (٣٨) بعث الحجاج بجيش ثان

بقيادة قتيبة ، بالاضافة الى أسطول قام من الخليج العربي لدعم الجيشين ، وفي وقت قصير ، سقطت مدن السند الرئيسية ، ولم يكد القرن الأول للهجرة يجنح الى نهايته حتى كانت الراية الاسلامية ترفرف على البلاد التي تمتد من جبال الهمالايا حتى المحيط الهندي ، فدخلت هذه الأخيرة في الحظيرة العربية ، وبالتالي مع منطقة الخليج في علاقة وترابط أبدي .

وإذا كان أحد الباحثين[٣٩] يرى علة هذا الانتصار في قيمة الخطط الاستراتيجية التي وضعها الحجاج ، فإن دور نشاط الأسطول البحري الذي انطلق من الخليج العربي هو الذي لعب في رأينا الدور الحاسم .

ومهما كان الأمر فقد أصبحت مناطق هامة من شبه القارة الهندية جزءا من «دار الاسلام» مما جعلها تدخل في علاقة مع البلاد العربية وخاصة بلدان الخليج القريبة منها .

٢ ـ السمات السلمية في العلاقات الثنائية :

الى جانب السمة العسكرية التي طبعت العلاقات بين الخليج العربي ، وشبه القارة الهندية ، من الأكيد أنها تلونت كذلك بالطابع السلمي ، بل يمكن القول أن العلاقات السلمية سبقت نظيرتها العسكرية . وحسبنا ان سكان ساحل مالابار الهندي قد اعتنقوا الاسلام قبيل الفتح العربي للهند . فالمصادر الاسلامية تروي أن طائفة من التجار العرب دخلوا مالابار ، ومنها انتقلوا الى سرديب لزيارة أثر قدم أبي البشر ، وفيها لقيهم ملك مالابار فأكرم وفادتهم [٤٠] .

وعلى أية حال يمكن تلمس الطابع السلمي في العلاقات بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية وفق المحاور التالية :

أ ـ **المحور التجاري** : فقد كان تجار الخليج الى جانب ممارسة أنشطتهم التجارية ، يحملون معهم رسالة نشر تعاليم الاسلام ، واضعين نصب أعينهم العلائق الاجتماعية المتينة التي أقاموها مع السكان . فبفتح الهند انفتح الطريق أمام الهجرة الجماعية للتجار نحو الشواطىء الهندية وشواطىء الخليج على السواء . ومع مضي الزمن ، أخذت البضائع والسلع تحل محل القوة والسيف ، وأخذت المنطقتان تتبادلان وفود التجار . وهكذا كانت العلاقات التجارية التي أصبحت قائمة بين شبه القارة الهندية من ناحية ، والبلاد العربية الواقعة على ضفاف الخليج العربي من ناحية أخرى سببا في الدفع بعلاقات المنطقتين الى الامام في جو يسوده الأمن والسلام .

ومما يشهد على هذا التعايش السلمي - عن طريق التجارة - ما ذكره ابن سعيد من أن كنبابية من بلاد الجزرات الهندية «مشهورة يقصدها تجار الهند ، وفيها المسلمون ولهم فيها مساجد (٤١) .كما أن مدينة جاليور كانت مدينة مشهورة عند تجار المسلمين الذين يمرون من كنبابية الى دلهي (٤٢) وقد وقف المسعودي بنفسه عندما زار مدينة صيمور من بلاد الهند سنة ٣٠٤هـ على خليط من الأجناس من بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين اختلطوا مع أهالى البلاد وكونوا لنفسهم نظاما خاصا يعرف بالهزمة» يراد بها رئاسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة اليه» كما التقى بمجموعة من التجار فعدد أسماءهم (٤٣) .

شكلت العلاقات التجارية إذن مظهرا من مظاهر التعايش السلمي والتعاون في العلاقات الخليجية الهندية ، ولعب التجار دورا هاما في هذا التواصل .

ب - إختلاط الأجناس : من المعلوم أن التجار الخليجيين الذين أبحروا الى الهند استوطنوا مع الأهالى وعاشوا معهم جنبا الى جنب ، كما أن جاليات هندية استقرت في مدن الخليج ، فتمت عمليات الزواج والمصاهرة ، مما أدى الى امتزاج اجتماعي قل نظيره ، وفي هذا الصدد ذكر المسعودي (٤٤) ان طائفة من الجنس الهندي تسمى البياسر ، وهم المولدون من أباء عرب وأمهات هنديات كانوا يتنقلون من شبه القارة الهندية وبلاد الخليج العربي ليشتغلوا في حراسة السفن (٤٥)وتم الزواج بين مختلف هذه العناصر الهندية والخليجية . وقد كان المسعودي شاهد عيان حيث قال عندما زار الهند : «وبها يومئذ من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين . وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن تلك البلاد (٤٦) .

ج - الرحلات : ان الرحلات من بلاد الخليج الى الهند أو العكس شكلت معلما بارزا من معالم التواصل السلمي ، والعلاقات الانسانية بين المنطقتين . وقد احتفظت لنا أيادي القدر بمؤلفات كان أصحابها قد حطوا الرحال في بلاد الهند ، ومنهم سليمان التاجر السيرافي الذي زار هذا البلد سنة ٢٢٤هـ (٤٧) ، والتاجر برزك بن شهريار الذي وصل الى الهند قادما من العراق وصنف كتابه «عجائب الهند ، بره وبحره» (٤٨) .

د - دور العلماء : كان العلماء المسلمون من الخليج العربي يلقون بعصا التسيار في الهند ، ويتخذون من

تعاليم الدين حرفة لهم احتسابا لله تعالى [٤٩]، كما اعتنوا بتشييد المساجد ، ووصل هذا التأثير الى حد نشأة فن خليجي ـ هندي . فالمبنى العظيم المسمى «البابن الأعظم» الذي بناه ملك مالابار في كوئل بجنوب الهند هو نموذج ناطق للطراز العربي ـ الهندي [٥٠] .

وكذلك يبرز هذا التعايش على الصعيد الثقافي في اعتناء خلافة العراق بالعلوم الهندية ، فقد كان الخليفة المنصور أول من أمر بترجمة الكتاب الهندي المعروف بالسند هانا [٥١] .

وعلى نفس المنوال استفاد علماء الهند بالثقافة العربية حين تمت ترجمة القرآن الكريم الى اللغة الهندية في عهد مهروك بن رائق ملك الوراهندوسي سنة ٢٠٧هـ [٥٢] .

وبذلك أصبحت مظاهر الثقافة المتبادلة بين بلدان الخليج العربي وشبه القارة الهندية احدى سمات التعايش السلمي والتفاعل الحضاري بين المنطقتين ولعل هذه القرائن التي أوردناها تنهض حجة على أن العلاقات الخليجية ـ الهندية لم تكن مؤسسة على القوة والغلبة كما تزعم بعض الدراسات المغرضة ، بل كانت تحمل رسالة سامية ، ويخيم عليها روح التفاهم والسلم والتواصل الحضاري .

صفوة القول هو أن العلاقات التاريخية بين منطقة الخليج العربي وشبه القارة الهندية علاقة عريقة زادها الاسلام قوة وتجذرا . ولم تتأسس كما أظهر ذلك البحث ـ بمحض الصدفة ، بل تحكمت فيها مجموعة من الآليات والعوامل المتشابكة التي قمنا بتحليلها فاستنتجنا حتمية تلك العلاقات بما يتماشى مع طبيعة الظرفية التاريخية في الفترة المدروسة . كما تبين من خلال هذه الدراسة أن العلاقات بين الجانبين لم تكن متسمة بالطابع العدواني والقوة والبطش كما ذهبت الى ذلك بعض الدراسات المتحاملة ، بل كانت مطبوعة بروح التعايش السلمي وتحمل خطابا وديا للشعوب التي اتصلت بها ، وهو ما يمكن أن نلمسه في تراث وآثار طرفي العلاقة والذي لا زال بعضه ماثلا للعيان الى اليوم ، وبإمكان علم الآثار والتنقيبات التي يقوم بها الباحثون المختصون أن يميط اللثام عن كثير من مظاهر تلك العلاقات ، وهو موضوع لا زال في حاجة الى البحث والتمحيص .

أ.د. ابراهيم القادري بوتشيش
استاذ التاريخ الاسلامي
كلية الآداب ـ جامعة المولى اسماعيل
مكناس ـ المغرب

المصادر والمراجع المستعملة في البحث

أولا : المصادر الأصلية :

١ - ابن الأثير عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم الجزري (توفي سنة ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ ج.٤. طبعة مصر ١٣٤٨هـ .

٢ - ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل الموصلي (توفي سنة ٣٦٧هـ) صورة الأرض طبعة بيروت ١٩٧٩ - دار الحياة .

٣ - ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (توفي سنة ٨٠٨هـ) . تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربرج ٣ . طبعة بيروت ١٩٧٩ دار الكتب العلمية .

٤ - ابن سعيد ، أبو سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى بن عبدالملك الأندلسي (توفي سنة ٦٨٥هـ) . كتاب الجغرافيا تحقيق وتعليق اسماعيل العربي . طبعة بيروت ١٩٧٠ الطبعة الأولى ، المكتب التجاري للطباعة والنشر .

٥ - الأدريسي ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الشريف (توفي سنة ٥٦٠هـ) . وصف الهند - مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق . تحقيق أحمد مقبول . طبعة الهند ١٩٥٤ .

٦ - البلاذري ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي (توفي سنة ٢٧٩هـ(. فتوح البلدان . طبعة بيروت ١٩٧٨ ، دار الكتب العلمية .

٧ - المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (توفي سنة ٣٤٦هـ) . مروج الذهب ومعادن الجوهر .ج ١ طبعة مصر ١٩٤٦ (الطبعة ٤) . السعادة .

٨ - ياقوت الحموي ، أبو عبدالله بن عبدالله الرومي (توفي سنة ٦٢٦هـ) . معجم البلدان . الأجزاء الخمسة . طبعة بيروت (دون تاريخ) دار الكتاب العربي .

ثانيا : المراجع والدراسات العربية الحديثة :

٩ - الألوسي ، عادل محيي الدين : الصلات التجارية بين الخليج وجنوب شرقي اسيا في العصر العباسي الأول . مجلة الخليج العدد ٣ - ٤ سنة ١٩٨٤ .

١٠- شاخت وأخرون : تراث الاسلام : الترجمة العربية . طبعة الكويت (الثانية) ١٩٨٨ الجزء الأول . سلسلة عالم المعرفة ٨ .

١١- الشيخلي صباح ابراهيم والألوسي عادل محيي الدين : تاريخ الاسلام في افريقيا وجنوب شرق آسيا . طبعة بغداد ١٩٨٩ .

١٢- ماجد عبد المنعم : التاريخ السياسي للدولة العثمانية ، عصر الخلفاء الأمويين . طبعة القاهرة ١٩٨٣ (ط ٧) .

١٣- محمد كريم ابراهيم : العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر الثالث عشر الميلاديين مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٣٣ سنة ١٩٨٧ .

١٤- المباركبوري : رجال السند والهند . طبعة الهند ١٩٥٨ .

١٥- مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب مجلة ثقافة الهند مجلد ١٦ ، عدد ١ سنة ١٩٦٥ .

١٦- الندوي محمد اسماعيل : تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية طبعة بيروت (دون تاريخ) .

١٧- هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى الترجمة العربية . طبعة مصر ١٩٨٥ .

١٨- يعقوب بكر : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى . طبعة مصر ١٩٥٨ .

ثالثا : مراجع أجنبية :

19- Encyclopedie de l'Islam ed. Leyde 1913-1942, 2eme ed. Paris 1954.

20- GIBBON: The decline and fall of the Roman empire. Tome 5 London 1950.

21- Saint-Martin: Recherches sur l'histoir et la géographie de la mesene et de la characene. Paris 1833.





الهوامش

(١) فتوح البلدان . طبعة بيروت ١٩٧٨ ص ٤٢٠ . عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين طبعة القاهرة ١٩٨٣ ـ الطبعة السابعة ص ٢٣٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب فتوح البلدان للبلاذري الآنف الذكر ص ٤٢٠ وما بعدها حيث نلاحظ أنه يسرد الأحداث والوقائع الخاصة بفتح بلاد السند دون أن يحلل أسبابها وهذه طريقة كانت متبعة من طرف أغلب مؤرخي الفترة الوسيطية .

(٣) خصص ابن خلدون لفتح السند فقرة غير طويلة ، وبنفس المقدار خصص رواية لأخبار محمد بن القاسم بالسند أنظر : تاريخ ابن خلدون طبعة بيروت ١٩٧٩ج ٣ ص ٦٠ وص ٦٦ .

(٤) نشر هذه الرحلة المستشرق فران سنة ١٨٨١ تحت عنوان «رحلة الى الصين والهند» ، كما نشرها المستشرق سوفاجيه تحت عنوان «أخبار الهند والصين» .

(٥) يعقوب بكر : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، طبعة مصر ١٩٥٨ ص ٤٧ .

(٦) الشيخلي والآلوسي : تاريخ الاسلام في افريقيا وجنوب شرق آسيا ، طبعة بغداد ١٩٨٩ جـ ٢ ص ١٦١ .

(٧) يقول ابن خلدون بأن مدينة الديبل في السند كان بها صنم كبير يعبده الأهالي ، وقد حطمه الفاتحون العرب . أنظر : تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٦٠ .

(٨) البلاذري في فتوح ص ٤٢٠ . أبرز دور والي البحرين وعمان في التفكير في غزو السند .

(٩) محمد كريم ابراهيم ، العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢ ـ ١٣م) . مجلة المؤرخ العربي . ع ٣٣ سنة ١٩٨٧ ص ٢٢٥ .

(١٠) هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى . طبعة القاهرة ١٩٣٥ . الترجمة العربية ص ٥٣ .

(١١) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة بيروت (دون تاريخ) ج ١ ص ٣٤٧ .
(١٢) معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٥٠ .
(١٣) أنظر مثلا وصفه لاشبيليه : نفس المصدر جـ ١ ص ١٥٠ .
(١٤) ابن حوقل : صورة الأرض . طبعة بيروت ١٩٧٩ ص ٢٧٧ .
(١٥) نفســـه ص ٢٧٨ .
(١٦) نفســـه ص ٢٧٩ .
(١٧) نفســـه ص ٢٨٠ .
(١٨) الندوي : تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، طبعة بيروت (دون تاريخ) ص ٤٣ .
(١٩) ابن حوقل : م. س. ص ٢٧٩ .
(٢٠) نفس المصدر والصفحة .
(٢١) كتاب الجغرافيا المعروف ببسط الأرض : طبعة بيروت ١٩٧٠ تحقيق اسماعيل العربي ص ١١٩ .
(٢٢) نفس المصدر والصفحة .
(٢٣) ياقوت : م. س. ج ٤ ص ١٥٠ .
(٢٤) ابن خلدون : م. س. ص ٦١ .
(٢٥) الادريسي : وصف الهند وما يجاورها من البلاد تحقيق مقبول أحمد . طبعة الهند ١٩٥٤ ص ٤١ .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ . طبعة مصر ١٩٤٨ ج ٤ ص ١١٢ .
(٢٦) ابن سعيد : م. س. ص ١٠٧ .
(٢٦) مكرر : ن. م. هـ ٣٠ من مقدمة التحقيق .
(٢٧) هـــايد : م. س. ص ٤٣ .
(٢٨) Saint-Martin : Recherchessur l'histoire et la ge´ographie de la mecene et de la characene . Paris 1833. P 54.
(٢٩) هـــايد : م. س. ص ٤٤ .
(٣٠) النـــدوي : م. س. ص ١٦٨ .
(٣١) الشيخلي والالوسي : م. س. ص ١٦٩ . ويستثنى من هذا التعميم بعض الكتاب الهنديين من أمثال الندوي المشار اليه في الهامش السابق وكذلك جواهر لال نهرو في كتابه لمحات من تاريخ العالم .
(٣٢) أنظر عن بعض المدن التي فتحت صلحا بأرض السند عند البلاذري : م. س. ص ٤٢٥ .
(٣٣) نفسه ص ٤٢٠ ـ عبدالمنعم ماجد : م. س. ص ٢٣٣ .
(٣٤) نفســـه ص ٤٢١ .

(٣٥) الشيخلي والالوسي : م. س. ص ١٦٣ .

(٣٦) GIBBON : The Decline and Fall of the Roman Empire London 1950. Tome 5 P 388.

(٣٧) شاخت : تراث الاسلام : طبعة الكويت ١٩٨٨ ص ١٩٦ .

(٣٨) هو أحد أقرباء الحجاج بن يوسف ولم يكن يتجاوز السابعة عشرة من عمره . أنظر عنه :
L'Encyclope´die del L'Islam . T : 3 P 717-718

(٣٩) اسماعيل العربي : مقدمة كتاب الجغرافيا لابن سعيد ص ٣١ .

(٤٠) شاخت : م. س ص ١٩٥ .

(٤١) ابن سعيد : م. س. ص ١٢٠ .

(٤٢) نفس المصدر والصفحة .

(٤٣) المسعودي : مروج الذهب . طبعة مصر ١٩٦٤ . ج ١ ص ٢١٠ .

(٤٤) نفس المصدر والصفحة .

(٤٥) أحمد مقبول : العلاقات التجارية بين الهند والعرب . مجلة ثقافة الهند . مجلة ١٦ عدد ١ .

(٤٦) المسعودي : م. س ص ٢١٣ .

(٤٧) اسماعيل العربي : م. س ص ٣٣ .

(٤٨) الشيخلي والالوسي : م. س ص ١٥٣ .

(٤٩) نفسه ص ١٤٦ .

(٥٠) المباركبوري : رجال السند والهند في القرن السابع . طبعة الهند ص ٢٩٥

(٥١) اسماعيل العربي : م. س ص ٣٢ .

(٥٢) الشيخلي والالوسي : م. س ص ١٧٥ .

